البديل

أقصوصة مصرية

للأستاذ محمود تيمور

نشأت يتيم الأب والأم ، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أرويها . وقد أخبرونى أن أبى قد مات وأنا رضيع ؛ أما أمى فقد توفيت ولى من العمر أربعة أعوام ؛ فلا أذكر منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلا ما زارنى وسرعان ما اختفى . وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيوشة » من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلى . هى نحيفة طويلة ، صموتة جافة الطبع ، لها نظرات كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز فى النفس

وكان عمى يعاملنى بشدة ، ولكنه يشعرنى بعض الأحيان بشىء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ، ودقته البالغة فى النظام . بياع الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ، يسير فى خطوات عسكرية متثاقلة ، يلتزم فى حياته نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ؛ فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً فى أبحاثه القضائية

كنت فى ذلك الوقت فى مستهل الإجازة الصيفية أقضى يومى ، إما فى حديقتنا الصغيرة ، أتسلق الشجر مع أولاد الجيران ، أو ألعب بالكرة معهم

وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيت سيدة تخترق الشارع ؛ فلما رأتنا نتقاذف الكرة ، وخشيت أن يصيبها منها أذى ، سارت على الرصيف بجوار الحائط متجنبة مرماها . كانت حسناء فى مقتبل العمر ، ذات شعر أصفر بلمع لمعان الذهب ، تجذب الأنظار بأناقتها وزينتها ، وتمسك بعصا فى يمينها تعبث بها بمنة ويسرة

وما هى إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقت صوب السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاق بها ، وتحويلى سيرها . ونظرت إلينا السيدة نظرة بين الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع على حتى توقفت عن المسير وأخذت تلاحظنى ، ثم ابتسمت لى فى رقة ، فلم آبه بها ، واستأنفت لعبى ، ورأيتها واقفة مكانها بضع دقائق تتبعنى بنظرها المشغوف حيثما تنقلت

وفى مثل ذلك الوقت من اليوم التالى ، رأيت سيدة الأمس تسير على مقربة منا فى خطوات متمهلة ، فما إن وصلت إلى شجرة على جانب الطريق حتى وقفت فى ظلها ترقبنا ونحن نلعب ، وشمرت بها تخصنى — دون رفاقى — بنظرتها . وبعد برهة لمحتها تشير إلىّ بيدها تستدعينى إليها ، فلم أستجب ووالصلت لعبى . وظلت السيدة تلاحظنى فى اهتمام ؛ فضايقتنى هذه الملاحظة بعض المضايقة فارتبكت ، وهجم على وقتئذ زميل أوقعنى وانتزع الكرة منى ، ورأيت السيدة تهرع إلىّ ، وتساعدنى على النهوض وتنفض التراب عن ملابسى ، ثم انتحت بى ناحية وسألتنى :

— هل أصابك ضرر ؟

فأجبتها : كلا !

وأخذت تدقق النظر فى ثم قالت :

— يا لله ! أنت مجروح !!

— مجروح !

— جرح خفيف ، خفيف جداً تكدش الدبوس

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربنى ، فأصغيت لها . وأخرجت منديلها ، وأخذت تمسح جرحى ، وتجفف عرقى ، فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشنى وقالت لى :

— أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب بضرر ؟ !

فابتسمت . وشعرت بأن إجابتى كانت جافة ، ورفعت بصرى إليها ، فوجدتها تحدق فىّ ، وقد بدا عليها حنو غريب ، فاحتاج قلبى وقلت :

— نحن نلعب بالكرة دائماً ، وكثيراً ما وقعنا

— أين تسكن ؟

— هنا

وأشرت إلى منزلنا وجعل أحد رفاقى ينادينى :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

— نعم

فانحنت على جبينى تقبله ، وأمرّت يدها على رأسى تلاطفه ، ثم قالت :

— انطلق إلى أصدقائك يا حبيبى .

وانطلقت ألعب . أما السيدة فشيعتنى بنظرة طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفى المساء اجتمعت كعادتى بعمى و « الست عيوشة » على مائدة العشاء . وكان الصمت مخيما علينا ، كشأننا فى كل ليلة : « الست عيوشه » فى جلستها العسكرية لا يفارق وجهها الطبق ؛ تتحرك كأنها آلة بزنبرك ، وعمى بملامحه الصلبة ، ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينه الجريدة ، ولا يبادلنا حرفاً . . . وأخيراً نظر إلى الست عيوشة وقال لها .

— أسمعت بجارتنا الجديدة ؟

فتقلص وجه الست عيوشة وقالت ، وجسمها لم يتحرك قيد أنملة :

— أى جارة تعنى ؟

فابتسم عمي ابتسامته النكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم « رؤوف بك » فى الشارع المجاور لشارعنا ! !

وصمتت الست عيوشة كأنما أخجلها أن يغيب عنها هذا الخبر . فقال عمى :

— يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا . إن خبرها شاع وذاع فى حلوان .

فقالت الست عيوشة : وما أمرها ؟

فأجاب عمى ، وما زال على فمه ابتسامته النكراء :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر فى هذا البلد الصغير وباءها ؛ — وباءها المهلك المبيد ! !

فجحظت عينا الست عيوشة ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

— أمريضة هى ؟

— وأشد من مريضة . . . ! إنها من النوع الهدام الذى يخرب البيوت ، ويقوض سعادة الأسر . إنها . . . إنها ، ألا تفهمين ؟ !

— . . . فاهمة ! !

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولها شعر أصفر لابد أنه مصبوغ . . .

— مؤكد إنه مصبوغ ! !

— وقد رأوها تسير بمصا فى الطريق .

— كيف ؟ أعجوز هى ؟

— أجهل عمرها .

— لابد أنها تخفى سنها تحت طلاء المساحيق الثقيلة . . . يا لله : . . . ! ما أبشعها . . . ! !

وكان قلبي فى أثناء ذلك يدق دقاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعت عمى يقول :

— أرأيت سيدة تسير بمصا فى الطريق ! ؟

فقلصت الست عيوشة فمها مستنكرة ، وصمت عمى برهة ثم تكلم فى حزم وتشدد قائلا :

— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة ، أو اتصالكم بها ! !

فقالت الست عيوشة وقد زوت مابين حاجبيها :

— معاذ الله أن نتصل بهذه الفاجرة !

وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة ، كأنه يقول لى : أفاهم أنت ؟

وعند ما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا قلت للست عيوشة :

— عجيب أن يتحامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها ! !

— وما شأنك وهذا ؟ أرأيتها أنت ؟

— أنا ! أبداً . . . ولكن خبريني ، إذا حدث مثلا أني رأيتها تسير فى الطريق الذى أسير فيه ، فماذا أفعل ؟

— تمهل ريثما تخلى لك الطريق .

— وإذا رأيتها تقترب منى وتحاول أن تكلمنى ؟

فرمقتنى الست عيوشة بنظرة فاحصة ؛ فاختلج قلبي ، ورأيتها تبتسم بغتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

— أراهن أنك رأيتها وكلمتها . . .

فانطلقت أنكر فى تحمس ؛ ولكنى أحسست بأن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت نفسى بعد حين أقول للست عيوشة :

— أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ، ولن أكلمها بعد اليوم . لا تخبرى عمى بشىء

وتشبثت بجلبابها مسترحما ، فوقفت صامتة تحدجنى بنظرها البغيض ، ثم سارت متئدة الخطوات مرفوعة الرأس إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفاديا لاحتمال مقابلتى تلك السيدة . أما عمى فقد ذكرها مرة أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سخط وثورة ، فآلمنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ، ويريد فرض سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى أمل غامض إلى لقائها ؛ وتجاهلت ما أمر به عمى ، بل شعرت بشىء من الزهو والسرور فى تحديه ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها . ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرت إلى الشارع المجاور حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما اقتربت من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت

تقطف الأزهار ؛ ووقفت أمام الباب ساكنا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يغمر قلبى بحنوه وعطفه وطيبته . كانت تتنقل بين شجيرات الورد فى فستانها البديع ، وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إلى أنى أشاهد ملكا من سكان السماء .

ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب فرأتنى . ولشد ما كانت فرحتها ! فألقت بزهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول :

— واصف ! تعال . ادخل ياحبيبى ، أدخل .

وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى . يالله من ذلك الشعور الغامض اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة !!

وأخذت بيدى ودخلت بى الحديقة ، وجمعت ما انتثر من أزهارها ، وقدمته إلى وقالت !

— اختر لك منها ما يحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحسنها ، ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول !

— هى لك ياحبيبى

وكان فى الحديقة دكة فجلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجعلت تحدق فى وجهى طويلا وتمسح رأسى واكتسى وجهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيها بحركة خفية ثم قالت :

— لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية ؟

فطأطأت رأسى وقلت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن ، من أخبرك بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

— ذهبت بنفسى حيث تلعبون .... وكنت أنتظرك كل يوم .

فعجبت من هذا الاهتمام وشعرت بشىء من الخجل ... ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمرا أشعرنى بخوف ، وتلفت حولى فرأيت « كشكا » بعيدا عن الأنظار ، فرفعت بصرى إلى السيدة وقلت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هذا الكشك بعيدين عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :

ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شىء أريد أن أريك إياه .

وقامت وهى ممسكة بيدى ، وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستنى فى الردهة الداخلية فاذا بها حسنة التنسيق بديعة الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفى ركن من أركانها « بيان » كبير . وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقا جميل الصنع عليه نقوش طريفة ، وفتحته أمامى فوجدته يحوى مجموعة منوعة من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لى وهى تقدمه إلى :

— كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك

فعظم الأمر علىّ وقلت متلعثما :

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه ساءنى ذلك منك

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى وقالت لى :

— إفتح فمك ! إفتح !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت

تضحك ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً ، وبعد أن أكلت القطعة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدرك ، ولكنى سأبقيه عندك ، وسآخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه

فنظرت إلىّ مليا ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلاريب عمن أعطاك إياه . فانى أن أفكر فى ذلك

ثم صمتت برهة وهى تحدق فىّ وقالت :

— أتحب عمك ؟

— أحبه قليلاً ، ويحبنى قليلاً !

— والست عيوشة ؟ !

— لا أحبها ولا تحبنى

ونظرت إليها مدهوشاً وقلت :

— أتعرفينهما ؟

فقالت فى لهجة طبيعية :

— وهل من الصعب أن يعرف الجار ما يهمه عن جاره ؟ ... تعال

وقمت إليها ، فذهبت بى إلى « البيان » وجلست على مقعده ، وأجلستنى على ركبتيها ، واحتضنتنى باحدى يديها ، وأخذت يدها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على « البيان » فيصدر عنه نغم هادئ لطيف ، وأحسست بفمها يلمس رأسى ويقبل شعرى ، ثم قالت فى صوت موسيقى هادئ :

— كان هناك طفل يسألنى دائماً أن أعزف له هذا النشيد ، وأن أغنيه له . طفل جميل كان يحبنى وأحبه ، فجاءنا ليلة زائر كريه ممقوت يلبس السواد ، مقنع الوجه بقناع حالك وانتزعه منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدق أمامى :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت فى صوت مختلج النبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولانعود...

وتابعت كلامها ويدها تنقر على « البيان » هذا النغم الهادئ اللطيف

— سأغنى لك هذا النشيد عله يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمس شعره بفمى ، وأملأ صدري بعبير شعره الذهبى ... اسمع . اسمع

وأخذت تغنى الأنشودة فى صوت عذب حنون ، وتنهات « البيان » تصاحبها فى تناسق جميل فيتكون من امتزاج الصوت بالعزف وحدة تامة حتى ليصعب على السامع أن يفرق بينهما ، فيخيل إليه أن « البيان » هو الذى يغنى ، أو أن السيدة نفسها هى مصدر ذلك النغم ، تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت ؟ شعور عذب شجى باطمئنان هادئ لطيف ؛ شعور أثار بين جوانحى ذكرى محببة لمشاهد منزوية حرمتها منذ قديم

وبينما أنا على هذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُّ — وكانت غبشة الظلام قد أخذت تشيع فى الحجرة — فوقعت عينى على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت إلى ذهنى على الفور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبس السواد ، ويقنع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذى اقتحم منزل السيدة فى إحدى الليالى وانتزع

الطفل الذي تحبه ويحبها من بين احضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

— كلا ! لا تأخذنى ... !

... وأنير المكان ورأيت عمى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخطواته المتثاقلة ، عبوس الوجه ، يصوب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

— ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبق يده على يدي بشدة وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناء الناس ... ؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتسند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ؛ ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

— كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ماهو مخزٍ لى ومزرٍ بى فصدقها . ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام.

فرن صوت عمى قائلاً :

— عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حدتك يا سيدى ؛ فليس أمامنا الآن مايثير الغضب إلى هذا الحد . إن الغلام غلامكم وليس لى فيه أى حق

— حق ؟ هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافض :

— ألا يمكننا أن نتفاهم ؟ تفضل بالجلوس بضع دقائق ، ولا أطالبك أن تطيل

فقال عمي :

— أفضل الوقوف . تكلمى من فضلك وأوجزى

فخلعت السيدة حلية مستديرة دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاة على صدرها ، تصلها برقبتها سلسلة ذهبية ، ثم فتحتها وقدمتها إليه وهى تقول :

— أنظر فى هذه الصورة !

فتناول عمى الحلية ، ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحاً . فقالت وهى ما تزال تبتسم ابتسامتها الساكنة :

— كلا يا سيدى ، ليس واصفاً . دقق النظر فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ...

— ... إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلة التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلم ؛ ورأيته يخبو أمامى، يخبو رويداً رويداً حتى انطفأ نوره كل انطفاء . لقد مد الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة

وشعرت بيد عمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يسمل سملته المقتملة ، ومضت السيدة فى قولها :

— لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين ... كان يغمر قلبى

بهجة ويملأ عيني نوراً ، وكان صوته وهو يضج باللعب يبعث فى البيت الحياة والإيناس ... آه ! كم كنت سعيدة به ... ! كم كنت فخورة به ... !

ورأيت عمى يتحرك ، ليعتدل فى وقفته ، ولكنه ظل صامتاً يستمع بانتباه . وتابعت السيدة قولها :

— ... وعند ماحضرتُ إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقت المقادير إلىّ «واصف» فكأنما بُعث ابنى من جديد . رأيته يعود إلى بعد طول اغتراب ، بشكله ودلّه ، فآخذه بين ذراعى ، وأضمه إلى صدرى ، وأضع رأسه على موضع قلبي ؛ ليصغى إلى دقاته المتتابعة ، وألمس بفمى شعره الذهبى ، ثم أقبله وأشمه ...

وسكتت وقد أخفت وجهها فى المنديل . وبعد حين تمتمت قائلة :

— والآن يا سيدى ، ليس عندى ما أقوله بعد هذا

ووقف عمى يدور بعينيه أمامه فى حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها . ظل كذلك وقتاً وهو يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم تقدم نحو السيدة وحنى هامته أمامها فى خشوع وخرج وحده فى خطوات سريعة

محمود تيمور

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال

أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله

الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء

القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة

وكتب الزراعة تطلب من

شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا